

العلاقات بين التتار والعالم العربى : عصر سلاطين المماليك

د. قاسم عبده قاسم*

شهدت الفترة ما بين القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى والسابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى حدثين تاريخيين غير عاديين في تاريخ المنطقة العربية شرق المتوسط، بيد أن النتائج النهائية لكل منهما كانت متناقضة تماماً. فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر الهجوم الأوربى الكاثوليكي تحت راية الصليب، ثم قيام الكيان الصليبي على الأرض العربية في فلسطين وبلاد الشام تسانده أوروبا الكاثوليكية وتجعل منه قاعدة استيطانية تطرح مشروعاً بديلاً للمشروع الحضارى العربى الإسلامى. وشهدت سنوات منتصف القرن الثالث عشر هجوماً عسكرياً واسع النطاق من القوات التتارية على العالم الإسلامى الشرقى، وسقطت بغداد ومعها الخلافة العباسية، ثم تمكن المسلمون من إيقاف المد التترى في معركة عين جالوت.

وبينما استمر النضال ضد الصليبيين حوالى قرنين من الزمان انتهت بهزيمة المشروع الصليبي تماماً سنة 1291م، فقد اعتنق التتار الإسلام بعد جيل واحد من

* أستاذ بجامعة الزقازيق - جمهورية مصر العربية

غزواتهم المدوية وصاروا قوة فاعلة في الحضارة العربية الاسلامية.

وفي هذه الورقة سنتناول جانباً مختلفاً عن الحرب والغزو اللذين سيطرت أخبارهما على صفحات كتب المؤرخين والمعاصرين، وسنحاول التركيز على جوانب العلاقات الإيجابية على المستوى السكاني، والاجتماعي، والثقافي بين العالم العربي والتتار. وعلى الرغم من أن دولة مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) حول نهر الفولغا جنوب روسيا، قد سبقت مغول فارس في اعتناق الإسلام منذ عهد بركة خان*، فإن التتار في فارس قد دخلوا الإسلام أيضاً بعد اعتناق قازان (غازان) الإسلام في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي أيضاً.

كان إسلام (بركة خان)، زعيم القبيلة الذهبية فرصة لبناء نوع من العلاقات مع المنطقة العربية. فقد رأى السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (وهو من مغول القفجاق أيضاً) في هذه المملكة المغولية حليفاً مهماً ضد هولاكو وأتباعه ممن كانوا باقين على الوثنية. وقد توترت العلاقات بين بركة خان (كبير سلالة جنكيز خان آنذاك) وهولاكو، وتراشق الاثنان بالاتهامات. كان هولاكو غاضباً لأن بركة خان اعتنق الإسلام على حين كان بركة خان حانقاً على هولاكو لأنه دمر جميع مدن المسلمين وقضى على أسر ملوك الإسلام جميعهم ولم يميز بين الصديق والعدو وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة (1)، ثم تطورت الأمور بين الجانبين إلى مستوى الحرب الفعلية (2). وقد أدى هذا الموقف إلى تقارب بركة خان مع السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك في

* كان بركة خان أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيز خان، وكانت بلاد هذا الخان المسلم تمتد من تركستان شرقاً حتى شمال البحر الأسود غرباً وعاصمتها مدينة سراي.

(1) - رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ (نقله إلى العربية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة 1960 م)، مجلد 2، ج 2، ص 333 - ص 334.

(2) - انظر تفاصيل الخلاف، فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، الدولة المملوكية الأولى (دار المعارف 1976)، ص 76 - ص 78.

مصر. وقد كان الطرفان حريصين على هذا التقارب لمواجهة العدو المشترك المتمثل في مغول فارس.

من خضم أهوال الحرب بدأت العلاقات الإنسانية تحفر طريقها بين الجانبين. وقد ذكرت المصادر التاريخية في حوادث سنة 660 هـ / 1262م قدوم هجرة محدودة من التتار على حدود بلاد الشام، فأمر بيبرس بإكرامهم وإرسالهم إلى مصر، وقابلهم بنفسه. وكانوا حوالي مائتي فارس ومعهم أولادهم ونسائهم، وسكنوا بأرض اللوق في القاهرة، وجعل بيبرس أكابرهم من أمراء دولته، ثم ضم الباقين إلى فرقة المماليك البحرية. واعتنقوا الإسلام. ويبدو أن معاملة بيبرس الكريمة لهم قد أغرت المزيد من التتار على القدوم إلى مصر، ففي السنة التالية جاء من التتار أكثر من ألف وثلاثمائة فارس سكنوا أيضاً في اللوق..

ووصل رسولان من بركة خان، وهما جلال الدين بن قاضي دوقات وعز الدين التركمانى، يحملان رسالة إلى بيبرس جاء فيها⁽³⁾: "...أنت تعلم أنني محب لهذا الدين، وأن هذا العدو هولاكو كافر ملعون، وقد تعدى على بلاد الإسلام.. فقد وجب علينا غزوه... والرأي أن تقصده أنت من جهتك وأنا من جهتي... وأعطيك ما في يده من بلاد الإسلام...". وقد رد بيبرس على هذه الرسالة رداً جميلاً، وأرسلها إلى بركة خان مصحوبة بهدية فاخرة، وأعلن موافقته على ما جاء في رسالة بركة خان⁽⁴⁾. وقد وصلت سفارة بيبرس إلى بركة خان بعد رحلة طويلة، قضوا جزءاً منها في ضيافة امبراطور القسطنطينية الذي كان لابد لهم من المرور في بلاده في طريقهم إلى بلاد "القفجاق". وفي بلاط بركة خان قابل الرسل الخان المغولي، كما

(3) ابن أبيك الدوادار، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية (الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة 1971 م) ص 97 - ص 98؛ المقرئى، السلوك لمعرفة دول الملوك. ج 1، ص 474 - ص 475.

(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، (تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976)، ص 139 - ص 140.

قابلوا وزيره شرف الدين القزويني الذي كان رجلاً نابهاً يتحدث العربية والتركية والمغولية⁽⁵⁾، وقد قابلهم بركة خان وأعجبته رسالة بيبرس. وقد تطورت العلاقات بين الجانبين، فأمر بيبرس بالدعاء للخان التتري على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، كما تزوج بيبرس من ابنة بركة خان توطيداً لهذه العلاقات⁽⁶⁾.

وعلى مستوى آخر تمثلت العلاقات الدينية بين العالم العربي ودولة مغول القفجاق في وجود عدد من الفقهاء المسلمين في بلاط بركة خان، وقد كان عنده صوفي من أهل الفيوم اسمه "الشيخ أحمد المصري"، و "... له عنده حرمة كبيرة...". وعند كل أمير من أمرائه مؤذن وإمام، ولكل "خاتون" مؤذن وإمام، وللصغار مكاتب يتعلمون فيها القرآن الكريم⁽⁷⁾.

في تلك الأثناء كانت العلاقات مع التتار في فارس مشتتة على المستوى العسكري، وشهدت سنوات حكم الظاهر بيبرس صدامات عسكرية كثيرة من الجانبين، ولم تخفف منها وفاة هولاكو في ربيع الأول سنة 663هـ/يناير 1265م⁽⁸⁾. وظلت غارات التتار على أراضي سلطنة المماليك حتى سنة 670هـ/1272م، عندما وصل رسل التتار إلى الظاهر بيبرس وهو في دمشق يطلبون الصلح على لسان أبغا (أبقا) ابن هولاكو، ورد السلطان بإرسال سفارة إلى أبغا ومعه هدية رائعة، ولكن المفاوضات باءت بالفشل بين الجانبين⁽⁹⁾. وفي تلك السنة نفسها وصلت رسل من بركة خان، زعيم القفجاق، "... وكان مضمون الرسالة على أيدي

(5) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية ص 99 - ص 101.

(6) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 139 - ص 140؛ ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية ص 99 - ص 167 المقريزي، السلوك، ج 1، ص 174 - ص 175 - ص 477 - ص 479 - ص 480 - ص 495.

(7) ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص 100 - ص 101.

(8) انظر التفاصيل، فايد حماد عاشور، ص 86 - ص 93، ص 98 - ص 110.

(9) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ج 7، ص 158.

رسل بركة، مكتوباً بجميع ما استولى عليه هلاوون "هولاكو" مما كان في أيدي المسلمين من قبل، يكون في ملك السلطان الملك الظاهر، وأن يساعدهم على قلع آثار بيت هلاوون، فأحسن السلطان لهم الجواب في ذلك ووعدهم ببلوغ المقصود... "(10).

وقد استمر القتال بين سلطنة المماليك ومغول فارس تحت قيادة أبغا وألحق بهم عدة هزائم قاتلة، منها الهزيمة التي حلت بجيش أبغا في أبلستين 675 هـ / 1277م ثم توفي السلطان الظاهر بيبرس يوم الخميس 28 محرم 676 هـ / يوليو 1277م، ودفن في دمشق⁽¹¹⁾. وقد تولى الحكم بعده ابنه السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان " وهو ابنه الذي أنجبه من ابنة بركة خان، زعيم المغول القفجاق، وقد أعطاه نفس اسم جده لأنه تيمناً بهذا الجد. وكان عمر الابن سبعة عشر عاماً، ودخل دمشق في شهر ذي الحجة من السنة نفسها وصحبته والدته بنت بركة خان⁽¹²⁾. ولكن السلطان الصبي لم يكن على شاكلة أبيه. وبعد تطورات خلع نفسه من الحكم، ثم لم يلبث أن مات 678 هـ / 1280 م. وخلفه أخوه الملك العادل سلامش سلطان المائة يوم التي انتهت بعزله هو الآخر، ثم نفاه إلى القسطنطينية ومعه أمه وأخوه "خضر".

وتولى الحكم "السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون" الألفي الصالحي النجمي العلائي". ويرجع أصله - مثل سلفه ركن الدين بيبرس - إلى مغول القفجاق⁽¹³⁾. وهم الذين سبقت الإشارة إليهم، وعندما تولى الحكم كانت

(10) ابن أبيك الدواداري، الدرر الزكية. ص 167.

(11) نفسه، ص 208 - ص 211.

(12) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 203 - ص 209، بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج 2، ص 185: المقرزي، السلوك، ج 1، ص 651: قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية سنة 2001م)، ص 238 - ص 241.

(13) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 31 (تحقيق الباز العريني) والهيئة العامة للكتاب القاهرة (1992م)، ص 7: ابن حبيب، تذكرة النبیه في أيام المنصور وبنیه، (تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976م)، ج 1، ص 48: المقرزي، السلوك، ج 1، ص 663 - ص 673.

علاقاتهم بدولة سلاطين المماليك ممتازة بسبب التحالف والمصاهرة بين بيبرس وبركة خان، وربما يكون من الأمور ذات الدلالة والأهمية أن بيبرس وقلاوون كانا من القبيلة الذهبية، وأن زوجة بيبرس وأم ابنه السلطان السعيد بركة خان هي ابنة خان هذه الملكة المغولية.

على أية حال، فإن السلطان المنصور قلاوون ورث سياسة سلفه بيبرس، وكان عليه مواجهة تثار فارس، الذين انتهزوا فرصة الاضطراب الذي أعقب وفاة بيبرس ومتاعب البداية التي واجهت قلاوون، وبدأوا شن هجماتهم على المناطق الخاضعة لحكم دولة سلاطين المماليك. ففي سنة 680 هـ / 1281م جاءت الأخبار بهجوم التتار على بلاد الشام من ثلاثة محاور، ثم تكرر الأمر بعد عدة شهور، ولكن الهزيمة كانت من نصيب التتار، واختبأ الفارون منهم في الحلفاء والقصب على ضفتي نهر الفرات "... فأمر السلطان بإحراقها..." ومات منهم عدد كبير، كما أسر الجيش المسلم عدداً كبيراً⁽¹⁴⁾. بعدها مات أبغا بن هولاكو، وأخذت العلاقات مع التتار اتجاهاً آخر - لم يستمر طويلاً - بعد أن اعتنق تكودار هولاكو الدين الإسلامي، إذ تولى هذا الرجل حكم فارس وسمى نفسه "أحمد أغا سلطان بن هولاكو"، ويقول عنه ابن أبيك الدواداري إنه كان مسلماً ويحب المسلمين⁽¹⁵⁾. وبعد أن استقرت الأمور لأحمد تكودار، الذي اعتلى عرش مملكة أيلخانات المغول في فارس، خلفاً لشقيقه أبغا، أرسل إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون رسالة وصلت سنة 682 هـ / 1283 م، وجاء فيها "... فإن الله سبحانه وتعالى، بسابق عنايته، ونور هدايته، كان قد أرشدنا في عنفوان الصبى وريعان

(14) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج9 (تحقيق الدكتورة زبيدة محمد عطا - دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة 2001م)، ص 202 - ص 210: ابن أبيك الدواداري، الدرر الزكية، ص 241 - ص 245، المقرئ، السلوك، ج1، ص 681 - ص 700.

(15) ابن أبيك الدواداري، الدرر الزكية، ص 248: رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، ج2، ص 7، ابن حبيب، تذكرة النبى، ج1، ص 72.

الحدث إلى الاقرار برؤيته والاعتراف بوحدانيته، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام، وبصدق نبوته... وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المشاهد والمساجد والمدارس... وأمرنا بتعظيم أمر الحاج، وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتسيير قوافلها، وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد، ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم... " (16).

وقد أكرم السلطان المنصور قلاوون رسل الخان التتري، وخرجوا من القاهرة سرا كما دخلوها سراً.

لقد كانت هذه الواقعة تأكيداً لحقيقة تاريخية مؤداها أن التتار لم يكونوا، أبداً، مصدر خطر حقيقي على العالم المسلم، ولا على الحضارة العربية الإسلامية، مثلما كان الصليبيون القادمون من أوروبا الكاثوليكية. ذلك أن التتار لم يحملوا مشروعا بديلاً على المستوى الحضاري من ناحية، كما أنهم اعتنقوا الإسلام، وصاروا جزءاً عضوياً من العالم المسلم والحضارة العربية الإسلامية في مدى عقدين من الزمان من ناحية أخرى. حقيقة أن مصير تكودار انتهى بالقتل، ولكن حكم ابن أخيه أرغون بن أبغا كان آخر حكم بوذي في مملكة مغول فارس، كما سنرى بعد قليل.

على أية حال، كان أحمد تكودار قد اعتنق الإسلام قبل ولاية العرش (17). وقد أرسل إلى فقهاء بغداد رسائل تحمل هذا المعنى جاء فيها "... وأنا جلسنا على العرش ونحن مسلمون، فيلقون أهل بغداد هذه البشرى ويعتمدون في المدارس والأوقاف (الوقوف) وجميع وجوه البر ما كان يعتمد في أيام الخلفاء العباسيين،

(16) انظر النص الكامل للرسالة في: بيبس الدوادار، زبدة الفكرة، ج 9، ص 235 - ص 237، قارن ابن أبيك الدواداري، الدرة الزكية، ص 249 - ص 254: المقرئزي، السلوك، ج 1 و ص 707 - ص 708.

(17) كان أحمد تكودار أول خان مغولي في إيران يعتنق الاسلام. انظر: ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (تحقيق مراد كامل، القاهرة 1961)، ص 4، ص 6 - ص 16: المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 707 - ص 708.

ويرجع كل ذي حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية...".

بيد أن مشكلات وراثثة العرش في مملكة مغول فارس تسببت في تطور الأمور على النحو الذي أدى إلى خروج أرغون بن أبغا، الذي كان أبوه قد عهد إليه بولاية العرش، ضد عمه أحمد تكودار في خراسان. وعلى الرغم من هزيمة أرغون وسقوطه أسيراً في يدي عمه الذي "... عاد طالباً تبريز. فحضرت زوجة أرغون ووالدته، وخواتين كثيرات من الستات التي لهن الحق في الدخول على الملك والسؤال في العفو عن أرغون وإطلاق سبيله والاقتصار به على خراسان كما كان..." (18)، على حد تعبير المؤرخ بيبرس الدوادار. ولكن التتار في فارس - أو كبارهم بالأحرى - كانوا قد حققوا على الخان أحمد سلطان تكودار عندما رفض إطلاق سراح أرغون، قبل تدخل قريباته من الخواتين، وقبض على عدد من كبار التتار في فارس، وألزمهم باعتراف الدين الإسلامي. وقد ساروا جميعاً وأطلقوا سراح أرغون من سجنه، وطردهوا أحمد تكودار وقتلوه، واعتلى أرغون بن أبغا عرش المملكة، في الوقت الذي كانت فيه رسل الملك المقتول أحمد تكودار قد وصلت إلى القاهرة تحمل رسالة ثانية منه إلى السلطان المنصور قلاوون، ولكن السفارة جاءت بعد فوات الأوان (19).

على الرغم من أن أرغون أبغا بذل جهداً كبيراً لمحاربة الإسلام في آيلخانة التتار في فارس لدرجة أنه عين اليهودي "سعد الدولة" وزيراً له، فإن فترة حكمه كانت بمثابة انقطاع مؤقت في عملية تحول بطيء وأكد للتتار من حياة الرعي إلى ثقافة الحضرة، ومن البوذية إلى الإسلام، كما أن أعداداً متزايدة من التتار أخذوا يدخلون

(18) هذا النص أثبتناه كما هو بأخطائه اللغوية والنحوية من بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج 9 ، ص 254 - ص 255.

(19) رشيد الدين الهمذاني ، جامع التواريخ ، ج 2 ، ص 92 - ص 100 : بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج 9 ، ص 255 ، المقرئ ، السلوك . ج 1 ، ص 717 - ص 716 .

في نسيج الحياة الاجتماعية في العراق وإيران، واستوعبتهم الثقافة العربية الإسلامية.

وفي نفس الوقت الذي كان فيه سفراء أحمد تكودار في القاهرة يتلقون نبأ موت سلطانهم من السلطان المنصور قلاوون، جاءت سفارة من مغول القفجاق من "تدان منكو بن طوغان بن دوشي بن جنكيز خان" ملك القفجاق تقول إنه أسلم "... ويريد أن ينعت نعتاً من نعوت أهل الإسلام، ويجهز له علم خليفتي وعلم يقاتل بهما أعداء الدين..." وقد أكرم السلطان المملوكي الرسل، وأمر بسفرهم إلى الحجاز ومن هناك سافروا إلى بلادهم ومعهم ما طلبوه⁽²⁰⁾.

هذه إشارة أخرى مهمة على أن التتار القفجاق كانوا أكثر اقتراباً من العالم المسلم على الرغم من بعدهم الجغرافي نسبياً، كما أنها إشارة ذات دلالة مهمة على أن الحرب والغزو قد أفسحا مكانهما للعلاقات السلمية وتخلياً عن مكانهما للتواصل الإنساني بين أعداء الأمس الذين صاروا أبناء حضارة واحدة قوامها الإسلام. وإذا كانت الاتصالات المملوكية / القفجاقية تعدّ إرهابات تنبئ عما حدث في وقت لاحق، فإن لنا أن نتلمس تلك العلاقات الإنسانية الإيجابية التي اختفت خلف قعقعة السلاح أو كادت؛ إذ كان الإسلام وحضارته يجتذبان محاربي الأمس الأشداء الذين قضوا على الخلافة العباسية وبثوا الرعب في أوصال كل من تعامل معهم فتحولوا إلى أبناء ثقافة حضرية بناءً ودخلوا في النسيج العام للحضارة الإسلامية وصاروا من أشد المدافعين عنها.

ويبدو أن هذا الملك المغولي كان قد سئم مسؤوليات الحكم فتخلي عن العرش لابن أخيه "تلابغا بن منكوتمر" بعد حكم استمر حوالي خمس سنين⁽²¹⁾. وكان السلطان المنصور قلاوون قد جهّز هدية إلى هذا الحاكم وأرسل مبلغاً من

(20) المقریزی ، السلوك ، ج1 ، ص 716 .

(21) بيبرس الدودار ، زبدة الفكرة ، ج9 ، ص 277 : المقریزی ، السلوك ، ج1 ، ص 738 .

المال لعمارة مسجد جامع بالقرم، واشترط أن تكتب على الجامع ألقاب السلطان قلاوون⁽²²⁾. هكذا كانت العلاقات تزداد توطداً بين سلطنة المماليك في مصر والشام من ناحية وبين التتار القفجاق من ناحية أخرى على مر الأيام.

وعلى الجانب الآخر كانت دولة مغول فارس تعاني مرحلة من السيولة النسبية على المستوى السياسي والعسكري بسبب الصراعات الداخلية على العرش. بيد أن ذلك لم يخفف من مشاعر العداء المتبادلة مع سلاطين المماليك. إذ إن كيختو شقيق أرغون بن أبغا وخليفته على العرش تبادل التهديدات مع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ولم يحل دون تحول تهديدات الاثنين إلى معارك عسكرية فعلية سوى موت كل منهما قتيلاً بأيدي المنافسين سنة 693 هـ / 1294 م⁽²³⁾. وفي فارس لم يهنأ قاتل كيختو، وهو ابن عمه "بيدو بن طرغاي بن هولكو" بالعرش ولم يلبث أن قتل في السنة التالية على يدي "غازان بن أرغون بن أبغا".

كانت ولاية غازان (قازان) نقطة تحول مهمة في تاريخ التتار في فارس: فقد كان هذا الحاكم قد اعتنق الإسلام أثناء ولايته على إقليم خراسان. وتذكر الروايات التاريخية أنه أسلم بتأثير من الأمير نوروز الذي كان زوج عمته ومربيه أيضاً⁽²⁴⁾. وعلى أية حال كان اعتناق غازان الدين الإسلامي منعطفاً مهماً في تاريخ العلاقات بين التتار والمنطقة العربية على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي. ففي نهاية سنة 694 هـ / 1295 م اعتلى عرش الإيلخانية، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وكان أول مرسوم أصدره ينص على أن الإسلام هو الدين الرسمي لدولة مغول فارس، وأن الشريعة الإسلامية هي أساس نظام الدولة⁽²⁵⁾. هكذا كان لا بد للتتار

(22) المقرئزي، المصدر السابق، ص 805.

(23) فايد حماد عاشور، العلاقات السياسية، ص 128 - 129.

(24) فؤاد عبد المعطى الصياد، السلطان محمود غازان خان المغولي واعتناقه الإسلام (مكتبة الانجلو المصرية 1979) ص 7 - 11. وتنسب رواية رشيد الدين الهمداني هذا الفضل إلى الشيخ صدر الدين إبراهيم بن حمويه الجويني الذي كان يصحب غازان في معظم الأوقات.

(25) نفسه، ص 16 - 17.

الذين يحكمون بلاداً مسلمة أن يعتنقوا الدين الإسلامي . ولم يكن الأمر مجرد انتقال من دين إلى دين وإنما كان دخولاً عضوياً في نسيج الحضارة الإسلامية التي اكتسبت دماء جديدة وحيوية متجددة بدخول العناصر التتيرية فيها . وبطبيعة الحال كانت هذه الحادثة المهمة -أي اعتناق التتار في فارس الإسلام- تأكيداً على أن فترة جديدة في تاريخ المغول قد بدأت باندماجهم في المجتمع الفارسي المسلم الذي حكموه، وتحولهم من البداوة إلى الحياة الحضرية المستقرة .

وكان من مظاهر اعتناق غازان الإسلام أن سادت مظاهر الإسلام السني سواء من حيث ذكر الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة والعيدين والمناسبات من فوق منابر المساجد، أو من حيث نقش أسمائهم على العملات التي سكها غازان، وما إلى ذلك من مظاهر⁽²⁶⁾ .

بيد أن إسلام غازان لم تكن له نتائج إيجابية على العلاقات السياسية بين دول مغول فارس ودولة سلاطين المماليك في مصر والشام . فقد كانت الدولتان تتنافسان على قيادة المنطقة وزعامتها، وكانت كل منها تسعى إلى أن تكون قوة إقليمية كبرى على حساب القوة الأخرى . وانتهاز غازان اضطراب أمور سلطنة المماليك أثناء الفترة التي جاءت بين سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الأولى (693 - 694 هـ) وسلطته الثانية التي بدأت سنة 698 هـ / 1299م، وهاجم ممتلكات دولة سلاطين المماليك في بلاد الشام، وقد تعرض السلطان الناصر محمد بن قلاوون للهزيمة في منطقة المروج خارج حمص على أيدي قوات غازان في 27 ربيع الأول 699 هـ / ديسمبر 1299 م، وهرب هو وقواته إلى القاهرة لا يلوون على شيء⁽²⁷⁾ . ولكن المماليك أوقفوا هزيمة شنيعة بالتتار في رمضان سنة 702 هـ / 1303م⁽²⁸⁾ .

(26) نفسه ، ص 28 - ص 30 .

(27) المقرئى ، السلوك ، ج 1 ، ص 8890 - ص 891 : ابن أبيك الدواداري ، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر ، (تحقيق هانز روبرت هايمر ، المعهد الألماني بالقاهرة 1960 م) ، ص 20 - ص 23 : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ، ص 124 - ص 128 .

(28) المقرئى ، السلوك ، ج 1 ، ص 930 - ص 939 .

كان هذا العنف السياسي والعسكري بين الجارتين المسلمتين (دولة سلاطين المماليك في مصر والشام، ودولة مغول فارس) راجعاً في تقديرى إلى الطموح السياسي لغازان الذي كان يريد تحويل دولته إلى قوة إقليمية كبرى تنازع دولة سلاطين المماليك في زعامة المسلمين من ناحية، وحرص دولة سلاطين المماليك التي أنهت الوجود الصليبي بالمنطقة وأعادت إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة، على زعامتها وقيامها بدور المدافع عن المنطقة العربية والأراضي المقدسة من ناحية أخرى .

وخلف القسّمات المتجهمة الصارمة لهذا العنف السياسي، كانت هناك ملامح إيجابية في العلاقات بين التتار والمسلمين في المنطقة العربية تجلت في عدد من الحقائق المهمة على مستويات مختلفة :

أولاً: أن السلطان المملوكي العادل زين الدين كتبغا الذي حكم من المحرم 694 هـ حتى المحرم 696 هـ (على مدى سنتين وسبعة عشر يوماً) أثناء الفترة ما بين سلطنة الناصر محمد الأولى وسلطنته الثانية، كان من المغول أصلاً⁽²⁹⁾. وقد تولى الحكم في وقت مقارب لتولي غازان الحكم في إيلخانة مغول فارس .

ثانياً: كان هناك عدد من التتار الذين هاجروا إلى مصر منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس، واستقروا بها ولعبوا دوراً مهماً في الحياة السياسية، منهم عدد في خدمة السلطنة وعدد في فرق الجيش . وقد ذكر المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي شخصاً اسمه "قنقغ"، هاجر من بلاد التتار إلى مصر في زمن الظاهر بيبرس، فرزقه الله اثني عشر ولداً كلهم ذكور: منهم ستة في خدمة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وخمسة في خدمة الشجاعى (وزير ومدبر الدولة في

(29) كان من أسرى المغول في معركة حمص الأولى سنة 660 هـ (أيام السلطان الظاهر بيبرس)، وقد أخذه المنصور قلاوون ورباه ثم اعتقه وجعله من مماليكه، وراقه حتى صار من كبار الأمراء . انظر : النويرى ، نهاية الأرب في أخبار الأدب ، ج 31 ، ص 282 : بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج 9 ، ص 323 - ص 324 : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج 8 ، ص 55 .

سلطنة الناصر محمد قلاوون الأولى) وواحد منهم صغير "... وكان لقنقغ هذا منزلة عند الشجاعى وكلمة مسموعة، وشفاعته مقبولة، وله اطلاع على أمور الدولة بسبب أولاده..." (30).

ثالثا: أن هجرات التتار المسلمين إلى بلاد الشام ومصر كانت مستمرة - لأسباب عديدة- في عصر سلاطين المماليك (الدولة الأولى) على الرغم من الالتهاب السياسى والعسكرى الذي شاب العلاقات بين مغول فارس ودولة سلاطين المماليك في البداية. إذ أن المصادر التاريخية تحدثنا عن هجرة كبيرة من التتار إلى مصر سنة 695هـ. وكانت هذه الهجرة، التي قادها "طوغاي" زوج ابنة هولاكو، من طائفة الأويراتية⁽³¹⁾، التي كان منها السلطان العادل زين الدين كتبغا نفسه. وكان عددهم حوالى ثمانية عشر ألف بيت هربوا من غازان وعبروا نهر الفرات إلى بلاد الشام. ويفهم من كلام المقرئى أنهم كانوا على وثنيتهم "... فلما وصلوا بالغ السلطان في إكرامهم والإحسان إليهم، وأمر عدة منهم، وبقوا على كفرهم، ودخل شهر رمضان فلم يصم أحد منهم، وصاروا يأكلون الخيل من غير ذبحها، بل يربط الفرس ويضرب على وجهه حتى يموت فيؤكل. فأنف الأمراء جلوسهم معهم بباب المقلة في الخدمة، وعظم على الناس إكرامهم بغضهم في السلطان..." (32). ولكن المؤرخ أبو المحاسن بن تغري بردي يقول إنهم كانوا حوالى عشرة آلاف من عسكر بيدو ملك التتار، وأنهم طلبوا الدخول في الإسلام خوفاً من السلطان غازان، ومقدمهم اسمه "طوغاي" زوج ابنة هولاكو⁽³³⁾.

والراجع لدينا أن رواية ابن تغري بردي هي الأصح : لأن ابن أيبك الدواداري -

(30) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج8 ، ص42 .

(31) كان أبناء هذه الطائفة يقيمون بصفة أساسية في مناطق بغداد وديار بكر - انظر : المقرئى ، السلوك ، ج1 ، ص812 .

(32) المقرئى ، السلوك ، ج1 ، ص812 .

(33) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج8 ، ص60 .

الذي كان معاصراً للأحداث - قد ذكر رواية ربما يكون ابن تغري بردي قد اعتمد عليها. ونصها : " وذلك أن البريد وصل إلى الملك العادل كتبغا من الشام المحروس يذكر في كتبه أن قد وصل إلى الفرات بالرحبة من عسكر التتار تقدير عشرة آلاف بيت بحريمهم وأولادهم ومواشيهم، وأنهم راغبون في دين الإسلام وأنهم كانوا من عسكر بيدو، فلما انكسر، خافوا من غازان فقصدوا بلاد الإسلام، وأن المقدم عليهم يسمى طرغاي، ومعه أميران واحد يسمى ككتاي وآخر يسمى أركاوون، وكان طرغاي زوج بنت هلاوون (هولاكو). فعند ذلك سير الملك العادل إلى الأمير علم الدين الدواداري بأن يتوجه يتلقيهم فإنه حنّ بجنسه، فإنه كان أوراتيا، وهؤلاء قبيلته وقومه... فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرين ربيع الأول (695 هـ) عاد شمس الدين الأعسر إلى دمشق وصحبته من مقدميهم وأعيانهم مائة فارس وثلاثة عشر فارساً، تقدمهم الثلاثة المذكورون: طرغان وككتاي وأركاوون. واحتفل الناس لدخولهم. وخرج نائب السلطان وجميع العسكر الشامي في أحسن زي، فالتقوهم وأنزلوهم بالقصر الأبلق بالميدان، ورتبوا لهم راتباً جيداً... فتوجه شمس الدين قراسنقر بالمقدمين إلى الديار المصرية... " (34)

هكذا، تكشف الرواية الأقرب إلى الحدث أن التتار الذين وفدوا إلى الشام كانوا قد أعلنوا إسلامهم، وربما تكون شكوى المقرئ من تصرفاتهم ناجمة عن حداثة عهدهم بالدين الإسلامي من ناحية واختلاف عاداتهم وتقاليدهم عن عادات وتقاليد المصريين من ناحية أخرى (35). ولكن المقرئ وغيره يذكرون أن الأوراتية قد اندمجوا في الحياة القاهرية فيما بعد، وأحبهم الناس وأقبلوا على الزواج منهم لأنهم كانوا يتصفون بالجمال وحسن الصورة (36). وعلى الرغم من أن السلطان

(34) ابن أبيك الدواداري، الدرّة الزكية، ص 261-262.

(35) ردد هذه الشكوى ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات المعروف بتاريخ الدول والملوك، ج 1، (تحقيق

قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين - بيروت 1939)، ص 204.

(36) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، رقم 53)، ج 2، ص 22 - ص 23.

حسام الدين لاجين قبض على كبيرهم طرغاي وحبسه مع جماعة من كبارهم في مدينة الإسكندرية⁽³⁷⁾، فإن أعدادهم زادت وسكنوا حيّ الحسينية من أحياء القاهرة "... فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع، وأدركنا من ذلك طرفاً" ... ولله در الشيخ تقي الدين السروجي إذ يقول من أبيات:

يا ساعي الشوق الذي مذ جرى	جرت دموعي فهي أعوانه
خذ لي جواباً عن كتابي الذي	إلى الحسينية عنوانه
فهي كما قد قيل وادي الحمى	وأهلها في الحسن غزلانه
أمشي قليلاً وانعطف يسرةً	يلقاك دربُ طال بنيانه
واقصد بصدر الدرب ذاك الذي	بحسنه تحسّن جيرانه
سلم وقل يخشى من أيّ من	أفشت حديثاً طال كتمانُه

وما برحوا يوصفون بالزراعة والشجاعة، وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان، ويعانون لباس الفتوة وحمل السلاح. ويؤثر عنهم حكايات كثيرة وأخبار جمة. وكانت الحسينية قد أربت في عمارتها على سائر أخطاط مصر والقاهرة، حتى لقد قال لي ثقة ممن أدركت من المشيخة أنه يعرف الحسينية عامرة بالسواق والدور وسائر شوارعها كافة بازدهام الناس من الباعة والمارة وأرباب المعاش، وأصحاب اللهو والملعب فيما بين الريدانية محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة، وإلى باب الفتوح لا يستطيع الإنسان أن يمر في هذا الشارع الطويل العريض طول هذه المسافة الكبيرة إلا بمشقة من الزحام..."⁽³⁸⁾

هذا النص النادر يكشف عن مدى تغلغل التتار في الحياة المصرية لأنه يشير إلى دورهم في الحياة القاهرية منذ قدومهم سنة 695 هجرية حتى حياة المقرئ

(37) المقرئ، السلوك، ج1، ص812 - ص813 : ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص60 - ص99.

(38) ابن تغري بردي، النجوم، ج8، ص60.

(ت 845 هـ). وبطبيعة الحال كانوا قد تمصروا تماماً طوال هذه السنوات المائة وخمسين، ولكنهم تركوا بصمتهم على أحد أشهر أحياء القاهرة وهو حي الحسينية الذي يقع في قلب القاهرة الآن بعد أن كان على أطرافها الشمالية الشرقية في عصر سلاطين المماليك.

رابعا: أن التتار قد أسهموا في التصوف الإسلامي: ففي سنة 703 هجرية، وأثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، "... ورد الخبر على السلطان الناصر بقدم رجل من التتار إلى دمشق، يقال له الشيخ "براق"، ومعه جماعة من الفقراء (الصوفية)... وشيخهم من أبناء الأربعين سنة، وفيه إقدام وجراءة وقوة نفس وله صولة، ومعه طلبخانة تدق له نوبة (مثل كبار الأمراء الذين كانت تدق لهم الطبول عند أبوابهم أثناء الدخول والخروج)، وله محتسب على جماعته، يؤدب كل من يترك شيئا من سنته بضرب عشرين عصة تحت رجله... ولكن السلطان منعه من القدوم إلى الديار المصرية فسار إلى القدس، ثم رجع إلى بلاده..." (39) وكان براق هذا من القرم، من إحدى قرى دوقات وكان أبوه أميراً كما كان عمه كاتباً معروفاً ولكنه سار في طريق الصوفية، وقد ذكرت المصادر التاريخية خوارق نسبتها إليه.

هذه الأمثلة الأربعة التي قدمناها في الصفحات السابقة تؤكد أن التتار لعبوا أدواراً مهمة في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية في العالم العربي منذ طرّقوا أبوابه في القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي. فقد كان منهم كبار السلاطين (بيبرس، وقلاوون، وكتبغا)، وكان منهم كبار العسكريين الذين لعبوا أدواراً مهمة في الصراعات المعتادة بين المماليك على السلطة، فقد ذكر ابن تغري بردي التتار بوصفهم جماعة ذات بأس وهو يتحدث عن الصراع بين الشجاعى وكتبغا الذي تولى الحكم. كذلك كان منهم الناس العاديون الذين جاءوا

(39) ابن تغري بردي، النجوم، ج 8، ص 169 - ص 170.

في هجرات كبيرة منذ أيام السلطان الظاهر بيبرس وقد تأقلم هؤلاء بالحياة الحضرية سواء في مدن بلاد الشام أو في المدن المصرية عامة، وفي مدينة القاهرة بشكل خاص حسبما أوضح المؤرخ تقي الدين المقرئ في خطبه الشهيرة عند حديثه عن حي الحسينية.

وعلى مستوى العادات والتقاليد كان التأثير المتبادل بين التتار المستوطنين وبين أهالي البلاد التي عاشوا بها واضحاً في أنواع الأكل والشراب التتارية التي دخلت قائمة الطعام الشامية والمصرية والعراقية، أو في أنماط الملابس التي اتخذها التتار الذين قلدوا أهالي البلاد التي استوطنوها. ومن ناحية أخرى، دخل التتار نسيج الحياة الاجتماعية من خلال المصاهرة والزواج، وتذكر المصادر التاريخية أن الناس في مصر مثلاً كانوا يقبلون على التزاوج مع التتار بسبب جمالهم وحسنهم، بل إنهم كانوا يشجعونهم على الهجرة من بلادهم، ومن فارس والعراق وبلاد الشام، إلى مصر.

* * *

خلاصة القول إذن إن صفحات العلاقات الإيجابية بين التتار والمنطقة العربية في عصر سلاطين المماليك كثيرة وناصعة على الرغم من أن لون الدم والنار والدخان يغلب على صفحات العلاقات العسكرية. صحيح أن المعارك العسكرية هي الأعلى صوتاً في التاريخ، ولكن العلاقات السلمية الإيجابية هي الأبقى والأقوى تأثيراً. فقد صار التتار قوة مهمة مضافة إلى الحضارة العربية الإسلامية، كما أنهم صاروا عضواً مهماً داخل دار الإسلام في ذلك الزمان، وما بعده.